تحفة أهل البلاء

إعداد

أبي عبد الرحمن طارق أحمد الحمادي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدنيا دار ابتلاء

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بعد:

فإنَّ الله تعالى جعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان واختبار، يُبتلى فيها المؤمن بالسراء والضراء، والشِّدة والرخاء، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والشهوات والشبهات، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾[1]، أي: «نَبْلُوهم بما يُحبُّون وبما يكرهون؛ نختبرهم بذلك لننظر كيف شُكْرهم فيما يُحبُّون، وكيف صبرهم فيما يكرهون»[2].

(١) الأنبياء: ٣٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٦/ ٢٦٩).

و«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ»[1]، ومصائبها ملازمة للعبد في نفسه وأهله وماله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[2].

وإذا كانت محن الدنيا ومصائبها أصابت أحبَّ الخَلْق إلى الله تعالى وهم الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فلا يطمع أحد في السلامة من المحنة والألم، كما قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[3].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن يريد أن تدوم له السلامة والعافية من غير بلاء، فما عَرَف التكليف، ولا فهم التسليم»[4].

والمؤمن الصادق مَن صبر عند نزول البلاء عليه، وقابل ذلك بالرضا والشكر لله تعالى، فإنَّ العبد مأمور بعبودية الله تعالى في جميع

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦).
(٢) البقرة: ١٥٥.
(٣) العنكبوت: ٢-٣.
(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص٦١٢) باختصار.

أحواله؛ وبذلك يتميَّز المطيع من العاصي، والسعيد من الشقي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن ابتلاه الله بالمُرِّ: بالبأساء والضراء والبأس، وقُدِر عليه رزقه، فليس ذلك إهانة له، بل هو ابتلاء؛ فإنْ أطاع الله في ذلك كان سعيداً، وإنْ عصاه في ذلك كان شقيـًا»[1].

حِكَم الابتلاء وفوائده

وأحكام الله تعالى على عباده دائرة بين فضله وعدله، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، والعبد يتقلَّب بين فضله وعدله؛ جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حُكْمه، عدلٌ فيه قضاؤه، وهو المحمود على كل حال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[2][3].

وفي وقوع البلاء حِكَم وفوائد قد تخفى على العبد، ولو عَلِم ما فيه من الخير؛ لهانت عليه مصيبته، وتبدَّل حاله، قال الله تعالى:

(١) قاعدة في المحبة لابن تيمية (ص١٦٧).
(٢) المائدة: ٥٠.
(٣) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (١/ ٢٧٢)، زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٣/ ٢٧٨).

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾[1].

ومن أهم حِكَم الابتلاء وفوائده:

١- رجوع العبد إلى عبودية الله تعالى والتي من أجلها خُلِق، وتكميل مقام المحبة والذلِّ والخضوع له سبحانه، والتي لا تتم إلَّا بالابتلاء والتمحيص، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى الآية: أنه تعالى خَلَق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له»[3].

٢- التوبة من الذنوب والمعاصي، والرجوع عمَّا يكرهه الله تعالى ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، قال سبحانه آمراً بها: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾[4].

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوبة هي حقيقة دين الإسلام،

(١) النساء: ١٩.
(٢) الذاريات: ٥٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٩١).
(٤) النور: ٣١.

والدِّين كله داخل في مسمَّى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإنَّ الله يحب التوابين، وإنَّما يحب الله مَن فَعَل ما أمر به، وتَرَك ما نهى عنه»[١].

٣- تَيَقُّظ العبد من غفلته، ومحاسبته لنفسه، وإقباله على الله تعالى بأنواعٍ من العبادات الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾[٢]، أي: اختبرناهم باليُسْر والعُسْر؛ ليرجعوا إلى طاعة ربِّهم[٣].

فالبلاء يُهيِّج في قلب المبتلى من الخوف والرجاء، والإشفاق والوَجَل، والمحبة والإيثار، والفرار إلى الله تعالى، ما لا يُهيِّجه كثير من الطاعات؛ فيكون ذلك سببًا في استقامته وفلاحه في الدَّارين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مصيبةٌ تُقبل بك على الله خيرٌ لك من نعمةٍ تُنسيك ذِكْر الله»[٤].

---

(١) مدارج السالكين في منازل السائرين لابن القيم (١/ ٤٧٣-٤٧٤).
(٢) الأعراف: ١٦٨.
(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (١٠/ ٥٣٤)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان للسعدي (ص٣٣٧).
(٤) جامع المسائل لابن تيمية (٩/ ٣٨٧).

٤- تكفير الذنوب والسيئات، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[١].

٥- حصول الحسنات ورفع الدرجات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾[٢].

وقال نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»[٣].

قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لقَدِمْنا على الله مفاليس»[٤].

٦- تطهير النفس من أمراض القلوب وأدوائها؛ كالخُيَلاء، والاستعلاء، والكِبْر، والأَشَر، والبَطَر، والتجبُّر، والعُجْب،

---

(١) رواه أحمد (١٤٨١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٣).

(٢) الزمر: ١٠.

(٣) رواه ابن حبان (٢٩٠٨)، وحسَّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥٩٩).

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٦٠) عن إبراهيم المغربي.

والعظمة، وغير ذلك.

ولبس رداء التواضع للحقِّ وللخَلْق، ومعرفة عيوب نفسه ونقائصها، وعيوب عمله وآفاته.

قال الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، «أي: ليُنقِّيهم ويُخلِّصهم من الذنوب ومن آفات النفوس»[2].

٧- تمييز الصادق من الكاذب في إيمانه، والمطيع من العاصي في دعواه، كما قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[3].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناس ما داموا في عافية مسرورين، فإذا نزل البلاء؛ صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه والمنافق إلى نفاقه»[4].

(١) آل عمران: ١٤١.
(٢) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ٩٨٣).
(٣) العنكبوت: ٢-٣.
(٤) رواه أبو بكر القاضي في المجالسة وجواهر العلم (٥/ ١٠٩).

٨- معرفة حقيقة الدنيا وزيفها، وأنها متاع الغرور، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[1].

وأنَّ المقام فيها قصير، وأنها دار ممرٍّ لا مستقر، والمرء فيها على سفر، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[2].

وأنها ناقصة زائلة، والآخرة كاملة باقية، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[3].

فالابتلاء سبب في الوقوف على هذه الحقيقة؛ مما يبعث النفس على العمل لتحصيل الزاد، والاستعداد ليوم المعاد ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾[4][5].

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٢).

(٣) العنكبوت: ٦٤.

(٤) البقرة: ١٩٧.

(٥) انظر: كتاب الروح لابن القيم (٢/ ٦٥٨)، برد الأكباد عند فقد الأولاد لابن

الأمور التي تعين المؤمن عند نزول البلاء

هذا، وإنَّ المتأمل في نصوص الكتاب والسُّنة، يجد آثار رحمة الله تعالى بعباده، ومزيد فضله عليهم وإحسانه إليهم، حيث دلَّهم على علاج ما يصيبهم من سوء، وهيَّأ لهم الوسائل والأسباب النافعة التي يستدفعون بها كل مكروه.

فإذا ما تفكَّر المبتلى -في جسده بمرض، أو أهله بفَقْد، أو ماله بضياع، أو عدوٍّ بإيذاء، أو غير ذلك- في هذه العلاجات والوسائل والأسباب؛ هانت عليه المصيبة، وبردت حرارتها.

ومن أهم الأمور التي تُعين على تحمُّل البليَّة والصبر عليها:

١- الاستعانة بالله تعالى وحده في تخفيف المصيبة، وجبر كسرها، كما في قوله سبحانه على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ

ناصر الدين الدمشقي (ص١١٢-١١٧)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان للسعدي (ص١٥٨-١٥٩)، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١/ ١٥-٢٥).

عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1]، فمَن استعان بالله؛ أعانه على بَلْواه وتحمَّل الأذى.

٢- أن يتفكَّر المبتلى أنَّ مصيبته سبب في حصول الحسنات، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات[2].

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن خَلَقَه الله للجنة؛ لم تزل هداياها تأتيه من المكاره»[3].

٣- أن يتفكَّر في أنَّ الله تعالى قدَّرها عليه قبل أن يَخْلُقه، فإن جزع فلا يزيده ذلك إلَّا عذابًا، وإن آمن أنها من عند الله ورضي بها وسلَّم؛ هدى الله قلبه واطمأن، ورزقه الثبات عند الابتلاءات؛ فيحصل له بذلك ثواب عاجل في الدنيا، مع ما يُدَّخر له في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ١٢٨.
(٢) انظر الأدلة على ذلك: (ص٧).
(٣) الفوائد لابن القيم (ص٦١).
(٤) التغابن: ١١.

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: «هو الذي إذا أصابته مصيبة رضيَ وعَرَف أنها من الله»[1].

٤- أن يتأمل المبتلى أنَّ مصيبته لم تكن في دينه، فكل ما سواها من المصائب فهي عافية.

ولذا قال رجل لسهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دخل اللص بيتي وأخذ متاعي. فقال: اشكر الله تعالى! لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟»[2].

ولله دَرُّ القائل[3]:

وكلُّ كَسْـرٍ فإنَّ الدِّيـنَ يَجْبُرُهُ ... وما لكَسْـرِ قنـاةِ الدِّيـنِ جُبْرانُ

٥- أن يتيقَّن المبتلى بالفرج، فما بعد الضيق إلَّا السَّعة، وما بعد البلاء إلَّا العافية؛ فالأحوال لا تثبت على حال، بل كل أمرٍ بعده أمر،

---

(١) رواه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم (٢/ ٢٨٣). قال الألباني: «وصله البرقاني عنه عن عبد الله، ووصله عبد الرزاق والفريابي والطبري عنه، لم يذكر عبد الله». انظر: مختصر صحيح الإمام البخاري (٣/ ٢٩٦).

(٢) برد الأكباد عند فقد الأولاد لابن ناصر الدين الدمشقي (ص١٠١).

(٣) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: قصيدة عنوان الحكم (ص٤٣).

وما من شِدَّة إلَّا ستهون، فلن يغلب عُسْر يُسْرَيْن، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[1].

ولله دَرُّ الشافعي حينما قال[2]:

ولـرُبَّ نازلةٍ يَضيـقُ لها الفتى ... ذَرْعـاً وعندَ اللـهِ منها المخرجُ

ضاقتْ فلمَّا استحْكَمَتْ حلَقاتُها ... فُرِجـتْ وكُنتُ أظنُّهـا لا تُفرَجُ

٦- إحسان الظن بالله تعالى، وأنه ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾[3]، فمَن أحسن ظنَّه بربِّه؛ رزقه راحةً في نفسه، وطمأنينةً في قلبه، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»[4].

٧- أن يتأمل المبتلى في حاله وحال غيره من الناس، فسيرى أنَّ الكل مبتلى، إمَّا بفوات خيرٍ أو حصول شر؛ فسرور الدنيا ظل زائل،

---

(١) الشرح: ٥-٦.

(٢) ديوان الشافعي (ص٥٣).

(٣) النحل: ١٢٨.

(٤) رواه أحمد (٩٠٧٦)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٦٣).

إن أضحكَتْ قليلاً أبكَتْ كثيراً، وإن سرَّت يوماً ساءت دهراً، وما مُلِئت دارٌ فرحة إلَّا مُلِئت عبرة! وهذا مما يطفئ نار المصيبة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مع كل فرحةٍ تَرحةٌ، وما مُلِئ بيتٌ حَبْرةً[1] إلاَّ مُلِئ عِبْرةً»[2].

٨- أن يَعْلَم أنَّ الدنيا بما فيها من همومٍ وغمومٍ وآلامٍ فانيةٌ زائلة؛ لأنها مخلوقة للذهاب والأفول، وكل ما فيها يفنى ويزول؛ لأنها إلى الدار الأخرى طريق، وهي مزرعة الآخرة على التحقيق، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[3].

فإذا عَلِم المبتلى هذه الحقيقة؛ هانت عليه مصيبته، وتقبَّلها بصدر رحب، وطيب نفس.

٩- أن يَعْلَم أنَّ الله تعالى قد ارتضى البلاء عليه، واختاره له، وأنَّ

(١) (حَبْرةً) أي: فرحةً وسروراً. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي (ص٣٧٠).
(٢) رواه أحمد في الزهد (٩٠١).
(٣) الرحمن: ٢٦-٢٧.

العبودية له سبحانه تقتضي رضاه بما رضي له ربُّه ومولاه؛ فموافقة الله فيما أحبَّه ورضِيَه له من أنفع الأدوية للمبتلى!

قال رجل لعمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنه ليمنعني من عيادتك ما أرى من حالك! قال: لا تفعل، فإنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه لله عَزَّ وَجَلَّ»[1].

١٠- من أعظم ما يتسلَّى به المبتلى: تذكُّر مصيبة موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل مصيبة بعدها تهون، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ، فَلْيَذْكُرْ مُصَابَهُ بِي، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ**»[2].

قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أُصِبْنا بمصيبة إلَّا هانت إذا ذَكَرْنا مصيبتنا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3].

وقال[4] بعضهم في معنى الحديث السابق:

اصبِرْ لكلِّ مُصيبةٍ وتجلَّدِ ... واعْلَمْ بأنَّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ

---

(١) رواه أحمد في الزهد (٨٠٤).

(٢) رواه الدارمي (٨٨)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١٠٦).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٢٦٧).

(٤) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: ديوانه (ص١٢٩)، تسلية أهل المصائب

وإذا ذَكـرتَ مُصيبةً تَسْـلُو بها فاذكُـرْ مُصابكَ بالنبـيِّ مُحمَّدِ

فهذه الأمور ونحوها تثمر لصاحبها الصبر على البلاء، فإن قَوِيَتْ في قلب العبد؛ أثمرت له الرضا والشكر، اللَّذين هما أعلى مرتبةً وأشرف منزلةً من الصبر، وبذلك يستقيم سير العبد إلى الله تعالى والدار الآخرة، ما يكون سببـاً لسعادته في الدَّارين[1].

قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله سبحانه إذا أراد بعبده خيراً سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قَدْر حاله يستفرغ به منه الأدواء المهلكة، حتى إذا هذَّبه ونقَّاه وصفَّاه أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقُربه»[2].

للمنبجي (ص١٨).

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤/ ٢٧٠-٢٨١)، طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (٢/ ٦٠٠-٦٠٤)، برد الأكباد عند فقد الأولاد لابن ناصر الدين الدمشقي (ص١٠١-١١٢)، ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد للسخاوي (ص٥١٣-٥٣٧)، أركان الإسلام للقحطاني (١/ ٨٩٤-٩٣٤).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤/ ٢٨٠).

وصية إلى مبتلى

وختاماً:

اعْلَم أخي المبتلى! «أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[1]، وكل شيء بقضاء الله وقَدَره وفق حكمته وعدله ورحمته.

واعْلَم أنَّ الذي ابتلاك هو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، الذي هو أرحم بك من نفسك، وأرحم بعباده من الأم بولدها[2]، وأنه سبحانه لم يرسل عليك البلاء ليُعذِّبك، وإنَّما ليُهذِّبك، وليمتحن إيمانك وصبرك ورضاك عنه، وليسمع تضرعك وابتهالك، وليراك طريحاً ببابه، لائذاً بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعاً الشكوى إليه.

(١) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٦٩٩).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

واعْلَم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصابك من أدواء الكِبْر والعُجْب وقسوة القلب ما هو سبب هلاكك عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يسقيك من أدوية المصائب، حتى تكون حِمْية لك من هذه الأدواء، وحِفْظًا لصحة عبوديتك، فسبحان مَن يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل[1]:

قدْ يُنعِمُ اللهُ بالبلوى وإنْ عظُمتْ ... ويَبتلي اللهُ بعضَ القومِ بالنِّعَمِ

واعْلَم أنَّ الجزع لا يرد المصيبة، ولا يخفف منها، ومهما بلغتَ من الجزع والأسى، فآخر أمرك إلى الصبر.

واعْلَم أنَّ «**عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[2]؛ فارْضَ لنفسك ما رضِيَه لك ربُّك ومولاك.

واعْلَم أنَّ عاقبة الصبر حميدة، ومآل أهله اللذَّة والسرور في الآخرة، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ جُلُودَهُمْ**

(١) البيت لأبي تمام. انظر: ديوانه (٣/ ٢٨٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣٩٦).

كَانَتْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِيضِ؛ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ»[1].

فالْجَأْ أخي المبتلى إلى الله تعالى، وداوِم التضرع إليه سبحانه، مع القيام على قَدَم الذلِّ والخضوع والانكسار، والدعاء بأن يرفع عنك هذا البلاء، وتحرَّ أوقات الإجابة؛ مثل: آخر الليل، وبين الأذان والإقامة، وفي السجود.

وضُمَّ إلى ذلك الاستغفار؛ فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه، متَّعه متاعًا حسنًا إلى أجلٍ مسمًّى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[2].

وليَكُنْ لسانك رطبًا من قول: «لا حول ولا قوة إلَّا بالله»؛ فبها تُحْمَل الأثقال، وتُكابد الأهوال، وتُنال رفيع الأحوال.

ولازِم التقوى على كل حال؛ بفِعْل ما أَمَر الله به، واجتناب ما نهى عنه، مع التأسِّي بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع أقواله وأفعاله

(١) رواه البيهقي في شُعَب الإيمان (٩٤٥١)، وحسَّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٠٦).
(٢) هود: ٣.

وأحواله؛ فبها تُنال رحمة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[1].

واصبِرْ على ما يَعْرِض لك من الموانع والصوارف، فإنك ما تَلْبَث أن يؤيِّدك الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبك.

ولا تَسْأَمْ من الدعاء والطلب، فإنَّ العبد يُستجاب له ما لم يَعْجَل، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»[2].

واعْلَم أنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العُسْر يُسْراً، ولم ينل أحد شيئًا من جسيم الخير -نبيٌّ فمَن دونه- إلَّا بالصبر.

والحمد لله ربِّ العالمين[3].

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) آل عمران: ١٣٢.

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧٣٥).

(٣) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٧/ ٤٤٦-٤٤٨)، زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤/ ٢٧٠-٢٨١).

t.alhammadi99@gmail.com